

عشرات الأقلام^(١)

بقلم المتولى قاسم

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية الاميرية للبنات

٢

(٥) استعمال النفي مع الفعل (عاد - يعود)

نما جرت به الأقلام ، وكثر دورانه على الألسنة ، حتى وقر في النفوس أنه صحيح لا غبار عليه ؛ إذ لم يجد مقاومة له ، ولا تنبيها على فساد - من ذلك - مثل قولهم : « هبط ثمن القطن ولذلك لم يعد يقوم بنفقاته » ، و « لما تطلعت نفس الفلاح لم يعد يقنع بالضروريات » ، و « من تعب العامل لم يعد يقوى على العمل » ، و « تغيرت أحوال فلان ولهذا لم يعد يزورنا » .

ولا بد قبل تبيان رأينا في فساد هذا الأسلوب ، من إيضاح معنى (عاد يعود) ونظائره ، استكمالا للبحث ، واستعانة على رد الحق في نصابه ، بطريقة تقضى على الشك والارتياب ، فنقول : —

من أخوات (كان) التي تحتاج إلى اسم وخبر ، الفعل (صار يصير) مثل : صار الجو معتدلا - وقد هدأت الحال فصار الأمن شاملا - وبالاختصار يصير الصعب سهلا . ولا شك في أن هذا الفعل يفيد تحول اسمه من صفة إلى أخرى تخالفها وبالنظر إلى هذه الأمثلة يتجلى لك هذا المعنى ، فقد فهمنا أن الجو اعتدل بعد أن كان شديداً الحر أو البارد ، وأن النفوس قد استشعرت الهدوء والأمن بعد اضطرابها وخوفها ، وأن صعوبة الأمور تتحول بالاجتهاد إلى سهولة .

وهناك أفعال تشارك (صار) في المعنى والعمل - وقد عدوها عشرة - منها (حار يحور) . قال لبيد في رثائه أخاه لأمه أربد :

(١) راجع العدد الأول من السنة الثانية ص ١٤٠

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
ومنها تحوّل . قال امرؤ القيس :

وبدلت قُرْحاً دامياً بعد صحة فيالك من نَعَمَى تحوّلَ أبوسا
ومنها (عاد) قال الشاعر

وكان مُضِلِّي من هُدِيَتُ برُشدِه فله مغوٍ عاد بالرشد آمرا !

ومنها ارتد ، قال الله تعالى في أمر يعقوب وقميص يوسف عليهما السلام :
« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » .

وبقية الأفعال تسهل مراجعتها مع شواهدا في شرح الأشموني على الألفية -
وقد رأيت فيما مر بك من الشواهد معنى التحوّل والانتقال من صفة إلى أخرى
واضحا جليا ؛ ففي البيت الأخير تشاهد انتقال المتحدث عنه من الإضلال
والإغواء ، إلى الهداية والإرشاد ، وقد كان هذا مثار عجب الشاعر ودهشته ؛
ومثله الباقي

وإذ كان معنى التحول هو المعوّل عليه في هذا الباب ، لاحظ النحاة في
المأثور من الكلام العربي أن (كان ، وظل ، وأضحى ، وأصبح ، وأمسى)
قد تستعمل في معنى صار . قال الله تعالى : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ،
وَسَيَّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً » وقال الشاعر :

تلك المدائن بالآفاق خالية أمست خلاء ، وذاق الموت بانيتها
ومن أجل ذلك أيضا أورد (الأشموني) الفعلين (غدا وراح) من أخوات
صار ، واستشهد على ذلك بالحديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما
يرزق الطير : تغدو خماسا وتروح بطنانا » فلم يقبل (الصبان) في حاشيته عليه هذا
الاستشهاد ، ورده بأن الظاهر في الفعلين هنا أنهما تامان ، ونصب ما بعدهما على
الحالية ، لا على الخبرية للفعل الناقص . إذ كان معنى التحول في (تغدو) غير محقق
و (تروح) مقابل له ، فاعتباره تاما أولى من معنى الصيرورة ؛ ولذا رأى الصبان
أنهما « بمعنى تذهب في الغدوة ، وترجع في الرواح أي المساء » (١)

ولقد نلاحظ في الشواهد الآتفة الذ كر : أن أفعال الصيرورة فيها تدل على التحول إلى الصفة المذكورة بعدها متمثلة في خبرها ، وأن الاسم قد انتقل إليها بعد اتصافه بصفة تضادها ، وهذه الصفة الأولى التي كان الاسم متصفا بها قبلا تراها مذكورة في الكلام ، كما في ثلاثة الآيات الأولى ؛ وقد نراها مذكورة ، في عبارة سابقة في سياق القصة ، كما في أمر يعقوب الذي ابيضت عيناه من الحزن ثم عاد بصيرا ، وقد تكون هذه الصفة الأولى ملحوظة غير مذكورة لافي الكلام نفسه ولا قبله ، كما في آية السماء التي تشققت وصارت أبوابا ، وكانت قبل ذلك سقفا محفوظا ماله من فروج ، وكما في تلك المدائن التي خلت من سكانها ، وفقدت بشاشتها ، بعد العمران وحسن الحال .

من كل ما تقدم يتبين القارئ من الوجهة اللغوية والتحويلية أن الفعل (عاد يعود) بمعنى (صار يصير) يتطلب اسما وخبرا ، وأن خبره يمثل الصفة التي تحول إليها الاسم بعد صفة أخرى كانت له فزالت عنه وانتقل إلى ضدها . ولم يبق إلا البحث في التعبير الشائع من الوجهة البلاغية والمنطقية ، لنعرف : أيقوم ذلك التعبير بالمعنى المراد للمتكلم ، أم ينحرف عنه ويعجز عن أدائه ؟

وللقارئ أن ينظر في الأمثلة التي في صدر البحث نظرة فاحصة ، فيتمثل المعنى القائم في نفس المتكلم بها ؛ فإذا قلت مثلا : « لم يعد العامل يقوى على العمل » فإنك تقصد أن العامل كان قويا قادرا على إتيان عمله (وهذه هي الصفة الأولى) ثم تغيرت حاله ، فتحول عن القوة والقدرة ، إلى الضعف والعجز (وهذه هي الصفة الجديدة) فأنت تريد أن تثبت له تحوله عن القوة إلى الضعف ، لا أن تنفي عنه التحول إلى القوة ، فانه كان قويا ، وانتقاله إلى صفة القوة لا يرد على الذهن ثبوته حتى تحتاج إلى نفيه - فاللفظ الذي يؤدي غرضك ويطابق مرامك ، هو أن تقول : « لقد تعب العامل ، فصار عاجزا عن العمل ؛ أو أصبح ضعيفا عن أدائه ؛ أو عاد لا يقوى عليه » فتأتي بفعل الصيرورة مجردا من النفي وبعده الصفة الجديدة - وهي هنا (عاجزا ، أو ضعيفا ، أو لا يقوى) - فتدفعه الصفة الجديدة مثبتة ، أو الأصلية منفية . وكذلك إذا قلت : « كان

عمر يزورنا، فلم يعد يزورنا، فإنما تقصيد أن تثبت له الانقطاع عن الزيارة، بعد أن كان متعودها؛ فتريد أن تقول: كان يزورنا فصارها جرائنا - أو أصبح منقطعا عن زيارتنا - أو عاد لا يزورنا. ومن هنا ترى هذا التعبير الشائع عاجزا عن أداء المعنى الذي تريده، غير مطابق للمعنى القائم في نفسك - والسر في ذلك هو تقديم أداة النفي على الفعل - فإن هذا التقديم أوجب اضطراب اللفظ وفساد المعنى؛ ولم ينطق بمثله العرب في معناه الذي إليه تقصد، وإياه نريد في عصرنا هذا.

ولذلك نرى أن التعبير الصحيح للمعنى الذي إليه نعيم بمثل هذه العبارات، إنما يصح بتأخير أداة النفي عن الفعل، أو بحذف النفي وجعل الخبر مثبتا وهو الصفة الجديدة نفسها. وعلى هذا الأساس نعيد هنا العبارات التي صدرنا بها البحث، بعد إدخال الإصلاح عليها مع تنويع الأساليب، فنقول:

«هبط ثمن القطن فعاد لا يقوم بنفقاته، ولما تطلعت نفس الفلاح أصبح لا يقنع بالضروريات، ومن تعب العامل صار عاجزا عن العمل، و« تغيرت أحوال فلان فعادها جرائنا منقطعا عن زيارتنا.

وقد تورط في هذا التعبير أكثر الكتاب تحريا للصواب، وأشد هم تحرجا من الخطأ، فمن زبأ يبالغهم أن يذهب بروائها مثل هذا الأسلوب الأعجمي؛ وقلما وجدناهم يأتون به صحيحا سليما من العيب، إلا ما رأينا من قول الأستاذ عبد اللطيف المغربي في مقال له عن العقل العربي في العدد الرابع من صحيفة دار العلوم للسنة الأولى ص ٦٩... فقوى وأستشرى، وتعمق في المعاني واستقصى، وعاد لا يقنع بما توحى به الفطرة الساذجة، واللمحة الطارئة،

ولا يحسن القاري. أنا أطلنا الكلام في هذا الموضوع عشا؛ فإن مجلة المجمع اللغوي (ولها مكاتبتها في نفوسنا) قد تعرضت في جزئها الأول لهذا التعبير في مقال لحضرة عضو المجمع الشيخ عبد القادر المغربي، عنوانه (تعريب الأساليب) ص ٣٣٦ فقرر أولا: أنه من الأساليب التي تسربت إلى لغتنا في العهد الأخير، والظاهر أنها أعجمية، وقد يدعى مدع عروبتها وإرجاعها إلى عرق في الأساليب

الغريبة . ثم قرر ثانياً : أن العرب إنما يعرفون النفي الساذج الخالي من فعل .
(العود) ولا عهد لهم بهذا التعبير الدخيل الذي استعمل في نفيه الفعل :
(عاد يعود) .

وبعد كلام عن نشأة هذا التعبير وذيوعه في عصرنا ، بدأ الباحث يشك في
أن النفي مع الفعل (عاد) غير عربي . بل ادعى أنه عربي محض ، مستدلاً بأن
(عاد) من أخوات صار ، مثل رجع ؛ ولم يورد من كلام العرب شاهداً على
سبق النفي للفعل (عاد) ، ولكن استدل على صحة ذلك بدخول النهى على
الفعل (رجع يرجع) بمعنى صار في الحديث : « لا ترجعوا بعدي كفاراً » .
وليس في هذا شاهد على صحة ما ذهب إليه الأستاذ المغربي : فالرسول
(صلوات الله عليه) ينهى أصحابه أن يتحولوا عن الاسلام إلى الكفر ، فلا بد
من تقديم أداة النهى على فعل الصيرورة — أما المعنى الذي تعبر عنه بقولك :
ما عاد — أو لم يعد التليذ كسلان — مثلاً — فهو أنك تثبت له صفة هي ضد
الكسل ، قد تحول عن الكسل إليها ، فمن الواجب أن تقول : عاد التليذ نشيطاً ،
أو مجتهداً ، أو غير كسلان ، أو لا يكسل .

وانتصافاً للحقيقة في ذاتها نقف وقفة مع حضرة الأستاذ الباحث في هذا
الحديث . فإنه يقرر أن لكل من صار وأخواتها معنى خاصاً ومقاماً خاصاً
تستعمل فيه ، وهذا لا غبار عليه . ثم قال (فقول الحديث « لا ترجعوا بعدي
كفاراً » صرحوا بأن « ترجعوا » فيه بمعنى « تصيروا » ، ولكن لو حلت محل
« تصيروا » (١) لما أدت تمام معناها ، لأن « لا ترجعوا » تفيد معنى « بعد
أن كنتم مسلمين » ، ولو قال « لا تصيروا » لما أفاد تمام المعنى)

ولعمر الحق لو أن معنى الرجوع في الحديث مقصور على ذلك الذي يقرره ،
ما زاد شيئاً فوق معنى « تصيروا » ، فإنه لم يزد شيئاً على المعنى المشترك بين أفعال
الصيرورة جميعها ، إذ كلها تفيد التحول من صفة إلى أخرى ضدها) ولكن
المعنى الزائد الذي يمتاز به فعل الرجوع هنا ، ولا يوفيه (تصيروا) هو أنه يشير

(١) لعله يقصد (لو حلت محلها تصيروا) كما يتبين من بقية كلامه

إلى حالة سابقة للإسلام، يحذرهم إياها - فكأنما قال : لا ترجعوا - بعد إذ أسلمتم وتمتعتم بنعمة الإسلام - إلى الكفر الذى عرفتموه مفرقا لكلمتكم ، موهيا لقوتكم ، مغريا بينكم العداوة والبغضاء ، ولذا ذيله بقوله : « يضرب بعضكم رقاب بعض » . وهو قريب فى معناه العام من قول القرآن الكريم : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » (أى بنعمة الإسلام) .

ثم انتقل الباحث إلى دليل آخر يؤيد به دعواه عزوبة هذا الأسلوب الذى يتقدم فيه النفى على الفعل (عاد) فأورد حديثا آخر يرى أنه أصرح فى الدلالة على ما يريد !! وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابى معاذ رضى الله عنه : « أعدت فتانا يا معاذ ؟ » ثم قال (لو أن معاذا أراد أن يجيب النبي عن قوله ، أيقول له « لست فتانا ، أم يقول « لم أعد فتانا » ؟)

واتخذ الأستاذ قول معاذ المقدّر الذى لم ينقل عنه ، ولم ينطق به ، أصرح دليل على صحة ذلك الأسلوب عينه .

ثم انتهى من ذلك كله إلى أن استعمال عاد فى النفى عربى صحيح ، لكن قليل الاستعمال فى كلام القدماء ، وكثر فى عصر الترجمة الأخير ، فليس أسلوبا إفرنجيا محضا . يا سبحان الله !! أعجبنى وعربى ؟ !

لا . ليس هذا أصرح فى الدلالة على صحة ذلك الأسلوب الدخيل ، بل ليس صريحا ولا ضميا ؛ فإن معاذ رضى الله عنه لم ينطق بشيء فنستدل به ، فكيف ننطقه بما لم يقل ؟ على أنه لو قال ذلك فعلا لكان بعيدا كل البعد عن طريق الاستدلال ، فإنه فى معنى آخر غير المعنى المقصود بهذا الأسلوب الشائع ؛ فإن إلقاء الرسول سؤاله عليه (أعدت فتانا) ؟ فيه إتهام له بتحويله عن الهدوء والسلام إلى إثارة نار الفتنة ؛ فكأنما قال له : يخيل إلى يا معاذ أنك صرت من دعاة الفتنة والاضطراب ، بعد أن كنت كما نهى من دعاة السلام ، فكيف تتحول عن عهدنا بك ؟ فلا بد لمعاذ والحالة هذه أن ينفى عن نفسه هذا التحول - ولا مفر حيثئذ من تقديم النفى على فعل العود .

وبين المعنيين بون شاسع . ولنضرب لذلك مثلا : أرأيت لو أنك تعرف إنسانا مخلفا للوعد ، ثم عرفت عنه أنه أفلح عن هذه العادة ، وأصبح يحافظ على مواعيده ؛ فأردت أن تصوغ هذا المعنى في أسلوب من هذا النوع ، ماذا تقول ليكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال ، مؤديا للغرض ؟ لاشك أنك تقول : صار صاحبنا وفيا ، أو عاد لا يخلف ، أو صار غير مخلف . أى انتقل عن الاختلاف إلى الوفاء ؛ وهنا تجد الفعل سابقا للنفي .

ولو أن لك صديقا معروفا بالوفاء ، ثم عرض من الأدر ما حملك على الارتياب فيه ، فقلت له : « أعدت تخلف الوعد بعد أن عرفت بالوفاء ؟ » لو أن ذلك كذلك لم يجد صديقك طريقا لدفع هذا الاتهام عن نفسه ، إلا بنفي هذا التحول المزعوم ، فيقول : « لم أعد مخلفا ، وهذا يتفق مع كلام معاذ المقدر صدوره منه ، وهو غير ما نحن بصدده مما شاع استعماله في الصحف .

فلسنا نزيّف هذا التعبير في كل مقام ، ولا نرفضه رفضا باتا في كل الأحوال بل إنما نمنعه إذا تطلب المقام سواء ، وتجنّاه عنه ولم يطلبه ، أما إذا طلبه معنّاك ، واحتاج إلى استعماله مرمّاك ، فما لأحد عليه من سبيل ، إذ هو الطريق إلى إيضاح غرضك وبيان مغزائك ؛ كما تقول : « لما توفى النبي عليه صلوات الله ، ارتدت العرب إلا أهل مكة والمدينة وما إليهما ، فإنهم لم يعودوا كغيرهم كفارا ، واعتبر الفرق بين المعنيين بقولك مثلا : عرفت أنك لم تسافر — ولم أعرف أنك سافرت . وإنما نشأ ذلك من الترجمة الحرفية ، أو التهاون فيما تتطلب اللغة ، من الدقة والتحرى ؛ ولسنا نمنع تعريب الأساليب ، فلا بد من تقارض اللغات بعض أساليبها ، وفي التقارض بينها زيادة للثروة اللغوية . إنما نرجو من يتصدى للتعريب أن يراعى في نقله الدقة ، فيما تتطلبه قوانين اللغة ومنطقها من تقديم وتأخير ، حتى يحى الكلام قويا غير مصاب بالضعف والتهافت ، ولا شك أن لكل لغة طريقها الخاصة في اتصال بعض كلمات الجملة ببعض ، بحيث لو تغير الترتيب لاختل المعنى ، أو انتقل إلى أسلوب لغة أخرى .

ولأمر ما عقد البلاغيون في كتبهم فصلا في موضوع أدخل في المنطق

والقضايا منه في البلاغة والأساليب - ذلك هو موضوع عموم السلب وسلب العموم - وتكلموا في ارتباط النفي بأداة العموم، وبينوا اختلاف المعنى في تأخير النفي وتقديمه في مثل قولنا: «كل الأعضاء ليسوا حاضرين»، وليس كل الأعضاء حاضرين، جزام الله عن اللغة خيرا، لقد كانوا حراصا على إنارة الطريق وتمهيد السبيل لمن بعدهم، ليكونوا على بينة في كلامهم وكتابتهم على أسلوب العرب وطريقتهم.

سيقول بعض الناس: مالنا ولهذا التدقيق والتفتيح مادامنا نفهم الغرض المراد بدون عناء، فإذا يحملنا على ترك ما تعودنا، إلى ما لم تصقله أقلام الكتاب؟ فنجيبهم بما يقرره الجاحظ في البيان والتبيين (١): من أنه ليس محكوما بالبلاغة لمن أفهمك قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه؛ بل لا بد أن يفهمك حاجته على مجرى كلام الفصحاء، بحيث لو سمعه الغري الذي لم يتعود سماع الخطأ لفهم عنه ما يريد - قال الحجاج لبعض النخاسين من أهل خراسان: «أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟» قال: «شريكاتنا في هوازاها، وشريكاتنا في مدائننا، وكما تجيء تكون» قال الحجاج: «ما تقول؟ وبلك!»، فقال بعض من تعود سماع الخطأ، وكلام الأعاجم بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: «يقول: شركاؤنا بالأهواز والمدائن يعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوها، وما يختلف معناه بتقديم النفي وتأخير أفعال المقاربة، فإن لكل من (كاد لا يكون) و (ما كاد يكون) معنى خاصا ليس هنا مقام بيانه، ومن السهل عند القارئ أن يراجع ذلك في الأشموني، وفي الجزء الأول من مجلة المجمع اللغوي ص ١٣٩.

وقد نرى في الصحف كثيرا من العبارات، يظهر فيها سوء الأثر الذي تحدثه الترجمة الحرفية، وتنتشر عدواه، وتعم بلواه - ومن ذلك ما يتصل بموضوعنا مثل قولهم: «لا يجب أن تخالف الأوامر»، ولا يجب أن تهمل المدرسه النشاط المدرسي، وأمثاله كثيرة، حتى لقد قرأت مثل هذا التعبير أكثر

من ثلاث مرات في نهر واحد من صحيفة محترمة جدا؛ بل لقد رأيت في كتاب تاريخ، كلمة ينقلها المؤلف عن بعض فلاسفة اليونان لبيان رأيه في المدينة الفاضلة فيقول: «لا يجب أن يزيد عدد سكان المدينة على عشرة آلاف نفس» وهذا التعبير ليس بمانع منطقيا (٢) من المخالفة، ومن إهمال النشاط، ومن زيادة السكان؛ فإن الوجوب منفي، فلا مانع من الجواز. والصواب أن يتأخر النفي عن فعل الوجوب، أو يوضع مكان (يجب) (يصح أو يجوز)، فيقال: «يجب ألا تخالف... ولا يصح أن تهمل... ولا يجوز أن يزيد...» وما يتصل بهذا الباب مثل قولهم: لم يعد لهم رغبة في السفر، ولم يعد لدينا صبر على الفراق ولم يعد عند المريض ألم.

ولو أصلحنا هذا التعبير على نحو ما سلف لتغير ترتيب العبارة وهيئتها كثيرا، فمثلا نقول: صرنا غير راغبين في السفر، أصبحنا لا نصبر على الفراق، عاد المريض لا يجد ألما. ولعل خيرا من ذلك وأسهل أن تبقى العبارة على حالها مع وضع (لم يبق) مكان (لم يعد) وفي المثل العربي: «لم يبق في قوس الصبر منزع»، فلعل الكتاب يتقبلون ما ندلى به مخلصين، فبذلك ينزهون بلاغتهم عما يشوبها من النقصان، ويخدمون اللغة خدمة تذكر لهم بالشكران.

المتولى فاسم